● **المبحث الثاني : انتفاء الإيمان عند الأكثرية**

ينتفي الإيمان عند الأكثرية كنتيجة طبيعية للكفر العقدي وكفر النعمة، إذ هما وجهان لعملة واحدة، فكل كفر يقابله انتفاء الوجه المقابل؛ كفر العقيدة يقابله عدم الإيمان بالغيب، وكفر النعمة يقابله عدم الشكر للمنعم.

وسنلاحظ ونحن نتتبع كتاب الله آية آية أن القرآن ينفي الإيمان على الأكثرية من وجوه مختلفة، مع وجود أسباب الإيمان وتوافرها لمن هدى الله ممن يبحث عن الهداية؛ وجود أسباب حسية، وأسباب تاريخية، وأسباب عقلية، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، ففي سورة هود نقرأ قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [هود: ١٧] في الآية كلمات مشعة في سياق ما نحن بصدد بيانه من موقف الأكثرية من مسألة العقيدة، فهناك «البينة» و«الشاهد» و«كتاب موسى» و«كفر الأحزاب» و«الحق» وكلها كلمات تتضافر على بيان شيء واحد هو أن كثرة الأدلة والآيات التي يفترض أن تسوق الناس إلى الهداية والإيمان لم تغن في ذلك شيئا، وظلت الأكثرية على غير الإيمان.

والعلماء والمفسرون الذين يعتمدون المنهج التحليلي تستوقفهم كثير من جزئيات هذه الآية، والراجح أن المقصود بالذي هو على بينة من ربه هو النبي ﷺ ومن آمن معه واهتدى بهديه ، والبينة هي القرآن ، والشاهد هو السنة المطهرة، وقد يكون هو أدلة الإعجاز المتضمنة فيه، على أن قطب فسر الشاهد بالقرآن وبهذا يصبح «المعنى الكلي للآية : أفهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه، حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه، وحيث يعتبر شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني، وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله هو كتاب موسى الذي جاء

إماما لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم وهو يصدق رسول الله ـ ﷺ ـ بما تضمنه من التبشير به، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله .. يقول :أفمن كان هذا شأنه يكون موضعا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات ..»[1].

والذي نستنتجه من كل ذلك هو أن كل هذه البراهين والدلائل العقلية والنقلية من القرآن والسنة والتوراة لم ينتفع بها الناس وظلوا في «مرية» وشك، وكانت النتيجة أن ﴿ **أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ على الرغم من تضافر هذه الشواهد العقلية ، فالعرب الأقحاح كان القرآن يتلى عليهم وهم من أفصح الناس، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وكان الأولى بهم أن يؤمنوا بهذه المعجزة، ولكن أكثرهم لم يؤمنوا حتى مر على الدعوة أزيد من اثنتي عشرة سنة وجاءت غزوة بدر وعدد المؤمنين لم يزد على ثلث الكفار الذين جاءوا من مكة للقضاء على هذه الثلة القليلة من المؤمنين فهزمهم الله ونصر عبده ومن سار على هديه.

واليهود ـ عليهم اللعنة ـ كذلك كانوا يعيشون بالمدينة وكان التوراة يحمل دلائل النبوة المحمدية، ولكنهم عموا وصموا فلم ينفعهم شيء من تلك البينات وظل أكثرهم على الكفر بالنبي ﷺ وما جاء به .

وقد كانت النتيجة التي آل إليها أمرهم جميعا هو بقاؤهم على الكفر الذي ساقهم إلى النار ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ والتعبير بلفظ «الأحزاب» يفيد جمع المجموع، فالحزب في خد ذاته كثرة وجمعه على «الأحزاب» يفيد كثرة الكثرة، ونحن حينما نتذكر حشود اليهود الذين كانوا في المدينة ندرك تلك الكثرة فضلا عن القبائل العربية الكثيرة التي لم تؤمن إلا بعد النصر المبين في فتح مكة، عندئذ فقط نلاحظ الدخول إلى الإسلام أفواجا:

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢ / ١٨٦٤

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ١-٢] فلفظ «أفواجا» هنا يقع في مقابل لفظ «الأحزاب» هناك، وهذا يطرح مشكلة بالنسبة للنظرية التي نحن بصدد إثباتها، إذ يوحي بوجود تناقض بين ما آل إليه أمر الناس بعد فتح مكة وما تشير إليه الآيات من أن أكثر الناس لا يؤمنون.

والواقع أن الناس يغلب عليهم طابع البلادة في الغالب فلا يؤثر فيهم، أو يوقظ شعورهم إلا الوقائع الحسية الكبرى، التي تزلزلهم زلزلة، فينتبهون من نومهم ويثوبون إلى رشدهم. ويدل على ذلك ما جاء على لسان ابن كثير من أن «أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة»(١).

فدخول الناس أفواجا كان بسبب هذا الحدث التاريخي الكبير، ولكن هذا الأمر يخضع لقاعدة نفسية تخضع لعاملي البلادة من جهة، والتقليد من جهة ثانية، ولذلك يلعب دورا في التوجيه العقدي سلبا وإيجابا، وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا»(٢).

والتجربة التاريخية التي عاشها المسلمون شاهدة على ذلك، فقد دخل الناس في الإسلام أمما من جاكرتا شرقا إلى الأندلس غربا، ولكن جاءت دورة تاريخية خرجوا منه دولا، وبدلوا بنظام الإسلام أنظمة مختلفة المشارب من اشتراكية وشيوعية وامبريالية وليبيرالية، ومعظم هذه الدول لا يزال يبحث عن مخرج، لولا أن الدعاة وضعوا يد الشعوب على الداء وبحثوا عن الدواء وأخذوا ينعتون للناس طريق الحق فشرعوا في العودة إلى الإسلام أفرادا، وعسى الله أن يعين فيعودون أفواجا.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/٥٦٣.

(٢) نفسه ٤/٥٦٣.

لكن ذلك سيبقى أملا نرجو أن تتجدد قوة المسلمين به، أما النص القرآني فإنه يؤكد مسألة الأكثرية في الطرف الذي يمثل السلبية، ففي سورة الرعد تفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿ **الَمر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الرعد: ١] هاهي الآية تؤكد أن أكثر الناس لا يؤمنون، على الرغم من أن القرآن الذي يحمل لهم رسالة ويأمرهم بالتكليف والإيمان هو نفسه الذي يتضمن الآيات الدالة على صدق النبي محمد ﷺ، وأن الذي أنزل إليه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به، فمن أجل هذا الخُلُق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونه حقا. لأن أصل كفرهم بالقرآن ناشئ عن تمسكهم بالكفر وعن تطبعهم بالاستكبار والإعراض عن دعوة الحق»(١).

وتلتقي هذه الآية من سورة الرعد بالآية السابقة من سورة هود في أمر واحد هو أن الأكثرية لا يؤمنون مع إقامة الحجة القرآنية عليهم، من حيث هي معجزة كبرى تضافرت فيها أوجه الإعجاز المختلفة، فآية سورة هود تسوق الأمر كما يلي: ﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾، وآية الرعد تعرضه بقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾.

ولو تساءلنا عن السبب لوجدنا آية يوسف تبينه بوضوح بقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٢، ١٠٣].

يشبه إعراضهم عن الآيات الحسية التي يمرون بها مرور البليد الذي فقد الإحساس بما حوله من الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقد عبرت عن الكثرة هنا بلفظ «كأين» للدلالة على كثرة الآيات لأن ذلك من شأنه أن يحرك

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٣ / ٧٩

الأحاسيس نحو علامات الهدى، ولكن النتيجة كانت دائما واحدة، وهي أن أكثرهم لا يؤمنون إلا وهم مشركون، وهذا بيان بأن «إيمانهم بالله كالعدم؛ لأنهم لايؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية»[1].

وتؤكد الآيات القرآنية هذه الحقيقة في سورة الشعراء ثمان مرات [2]، ولكن التأكيد هنا لا يتناول الأدلة الحسية التي تستمد قوتها من الطبيعة، وإنما يتناول الأدلة التاريخية، ولم نجد في سورة الشعراء سوى آية واحدة تتوقف عند الأدلة الحسية هي قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقد جاءت هذه الآية لتشير إلى الآيات الحسية المتعلقة بالحياة النباتية التي تعد نموذجا حيا لبيان قدرة الله على الإحياء للموتى، إذ تتكرر عملية الإنبات كل عام مرات، يراها الإنسان ويقف عليها وقفة المجرب الذي يستخدم المنهج الحسي في إدراك حقائق الأشياء، وهو منهج أقوى من المنهج العقلي الذي يقوم على التحقيق البرهاني، وهو تحقيق تتوقف صحة نتائجه على صحة المقدمات، أما المنهج الحسي التجريبي فيتوصل المرء إلى نتائج بحثه عن طريق التجربة التي يمكن أن يكررها مراراً حتى يستيقن من طبيعة ما توصل إليه.

فالآية إذ تدعوا الناس إلى أن يستعملوا حواسهم لإدراك هذه الحقيقة النباتية المتكررة ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ تعقب على ذلك بأن أكثرية البشر لا يستخدمون حواسهم، ولذلك ظل أكثرهم لا يؤمنون على الرغم من قوة هذه الأدلة.

وهكذا نجد أن «المنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون، وينبه الحس الخامد، والذهن البليد، والقلب المغلق إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان في كل مكان، كي يرتاء هذا الكون الحي بقلب

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٦٣

(٢) سورة الشعراء: (٨-٦٧-١٠٣-١٢١-١٣٩-١٥٨-٧٤-١٩٠).

حي»[1] ولكن في النهاية نجد القرآن يعقب على ذلك بأن أكثر الناس بلداء، ليس لهم ذلك الحس الذي يرتادون به الكون بقلب حي مما يجعل أكثرهم لا يؤمنون.

إن هذه الآية من سورة يوسف، جاءت لتختم الغرض من عرض قصة يوسف، وهو أن كثيرا من أخبار القصة كان غيبا لا يعلمه إلا الله؛ لأن من كانوا يحركون الأحداث في القصة كانوا يعتمدون أسلوب الكتمان، لئلا تكتشف جرائمهم، كان ذلك هو أسلوب إخوة يوسف، وكان ذلك هو أسلوب زوجة العزيز، ولهذا عقب على القصة بقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ لقد كان كل شيء غيبا لأنه كان مكرا، ومن شيمة الماكرين التخفي حتى لا يفضح أمرهم.

ومع أن هذا كله كان غيبا فإن المفروض أن يؤمن الناس بمحمد ﷺ حين يقص عليهم دقائق هذا الغيب التاريخي من حياة البشر، ولكن العناد منعهم من الإيمان فعقبت الآية على ذلك بقوله ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ لكي تبين للرسول ﷺ أن القاعدة النفسية التي بنيت عليها الطبيعة البشرية هي التكذيب وعدم الإيمان، ليس فقط بالنسبة لعالم الغيب الأكبر، ولكن أيضا بالنسبة للغيب الأصغر كالتاريخ، والأنباء المستقبلية، وعليه فإن حرص الدعاة مهما كان ليس من شأنه أن يغير من طبيعة الناس إذا تطبعوا على السلوك الذي يفضي بالنفس إلى أن تتورط فيما يزيدها بعدا عن الحق، والإيمان، والإسلام، وماذا يجدي الحرص إذ لم تجد الآيات والمعجزات في تحسين هذه القلوب، «فالواو للعطف على جملة ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ** ﴾ باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحي من الله وأنه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبي ﷺ، ولما كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعا في إيمانهم، عقب بإعلام النبي ﷺ -بأن أكثرهم لا يؤمنون»[2].

---

(١) في ظلال القرآن ١٥ / ٢٥٨٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ٦١

وقد تكرر الأمر نفسه في السورة نفسها تأكيدا لهذه الحقيقة العقدية، بعد هذه الآية مباشرة، إذ قال تعالى بعد ذلك ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [ يوسف : ١٠٦ ]

فالآية هنا معطوفة على الآية السابقة لبيان إعراضهم عن الآيات القرآنية التي يأتي بها رجل أمي لا علاقة له بعلم الآثار والتاريخ، لكنها تحمل دقائق أخبار الأمم السابقة.

إن التأكيد على أن أكثر الناس لايؤمنون في سورة الشعراء ثمان مرات له سببه، إذ أن مقدمة السورة تبين أن النبي محمدا ﷺ قد بخع نفسه غضبا من أنهم لم يؤمنوا ﴿ **طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [ سورة الشعراء : ١-٣ ]، أي لعلك تنهك نفسك وتهلكها من غضب وغم حرصا على إيمانهم، وهذا « يصور مدى ما كان رسول الله ﷺ يعاني من تكذيبهم وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب فتذوب نفسه عليهم »[1].

ومن أجل ذلك تأتي الآيات الموالية لتبين للرسول ﷺ حقيقة هامة في حياة البشرية، وهي أن بالإمكان أن تنزل عليهم آية تكرههم على الإيمان، ولكن الله لا يعامل البشرية على هذا الأساس ﴿ **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ [ الشعراء: ٤ ] .

والإشارة هنا إلى الآية المادية؛ لأنها أكثر دلالة على القوي الجبار، بالنسبة للبليد الذي لا يحرك إحساسه وشعوره سوى مثل هذه الآيات المادية الخارقة للعادة، ولكن المولى تبارك وتعالى « لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة - كما فعل مع بني إسرائيل إذ نتق الجبل فوقهم كأنه ظله - لقد جعل آيتها القرآن منهاج حياة كاملة معجزا في كل ناحية معجزا في بنائه التعبيري وتنسيقه

---

( ١ ) في ظلال القرآن ١٩ / ٢٥٨٤

الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلف خصائصه... يدل على مصدره الذي لاتختلف عليه الأحوال ، معجزا في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتلبيها وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها، وكلها مشدودة إلى محور واحد وإلى عروة واحدة في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة غير مقيدة بقيود الزمان والمكان هي التي أحاطت به هذه الإحاطة ونظمته هذا التنظيم، معجزا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس .. واستجابة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في يسر وسهولة عجيبين .. لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم، ذلك لأن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها وللأجيال كلها وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان ، والخوارق ـ المادية ـ لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى»[1].

إن الآية المادية إذا نزلت ستظل أعناق الجاحدين خاضعة لها خوفا لا إيمانا؛ لأن الإيمان له منهج آخر غير القهر، له منهج يحرك القلوب التي تملك الاستعداد للاستجابة الفورية بمجرد إدراك الحق.

ولكي يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة لرسوله ﷺ، الذي ذهبت نفسه حسرات على الذين لا يؤمنون، استعرض نماذج تاريخية متعددة، وكلها تقدم صورا عن مجتمعات جاءها رسلها وأنبياؤها بمعجزات مادية ولكنها لم تنتفع بها وكان موت أكثرهم على الكفر، فعرض قصة فرعون ثم قصة نوح، ثم هود، ثم

---

(١) في ظلال القرآن ١٩ / ٢٥٨٤ – ٢٥٨٥ .

قوم صالح ثم قوم لوط ثم قوم شعيب، وكلما عرض تاريخ أمة من هذه الأمم عقب عليها بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (١).

وعلى سبيل المثال عندما عرض قصة فرعون ختمها بقوله : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء : ٥٢-٦٧]

فهذا الجزء من قصة فرعون نموذج حي للشعوب التي تتعامل مع المعجزات المادية من منطلق العناد والمكابرة، وهي تدل على طبع أكثرية البشر، إذ أننا نلاحظ أن فرعون يقدم لنا أتباع سيدنا موسى في صورة تمثل القلة ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴾ فقط هذه القلة هي التي عرفت الحقيقة فاتبعتها دون مكابرة، أما الباقي فلم يستفيدوا من تلك الآية، بل الآيات التي كان آخرها انفلاق البحر ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

« فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما، وإن خضع الناس لها قسرا، إنما الإيمان هدى في القلوب »(٢). ولكن لما كان الغالب على البشرية هو بلادة الحس والشعور فإن النتيجة هي أن أكثرهم لا يؤمنون مهما كانت قوة الخوارق المادية مؤثرة على الحس، لأن المسألة لا تتعلق بالرؤية البصرية، وإنما تتعلق بالرؤية

---

(١) الشعراء : ٦٧-١٠٣-١٢١-١٣٩-١٥٨-١٧٤-١٩٠ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩ / ٢٥٩٩ .

القلبية، وأغلبية الناس ممن تعطلت قلوبهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]

وقصة نوح تؤكد الفكرة نفسها، فبعد استعراض تاريخ نوح مع قومه ينتهي الأمر على الشكل التالي: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦ - ١٢١].

هكذا تنتهي القصة لتبين أن أتباع نوح كانوا قلة قليلة، هم فقط الذين شحنتهم السفينة ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، أما الباقي فقد عصوا رسولهم ولم ينتفعوا بتلك الآيات الحسية التي جاءهم بها رسولهم نوح عليه السلام ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وتأتي قصة ثمود فإذ هي تنتهي بقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤-١٥٨].

«هكذا طلبت ثمود تلك الخارقة فاستجاب الله لعبده صالح وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة ... فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين؟ إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة، ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها»[1]. لقد كانت النتيجة واحدة لذلك جاء التعقيب واحدا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وتأتي قصة قوم لوط لنجدها تختم بقوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ *

(١) في ظلال القرآن ١٩/٢٦١٢

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٩-١٧٤] .

هكذا تنتهي قصة قوم لوط لتبين أن الناجين لم يزيدوا على أهل لوط عليه السلام بل حتى تلك العجوز زوجته كانت مع القوم الضالين فنالها ما نال الأكثرية من العذاب، وكان التعقيب هو هو لم يتغير.

وتأتي بعد ذلك أخيرا قصة أصحاب الأيكة، الذين كذبوا شعيبا لتختم تلك المشاهد كلها ولتؤكد القاعدة التي كانت عليها المجتمعات البشرية ولا تزال: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ١٨٧-١٩٠] .

تلك هي المشاهد التاريخية يعرضها القرآن الكريم في سياق واحد ليدل على هذه القاعدة الأساسية التي تحكم سلوك البشرية كلها، ليدل على أن الأكثرية لا يؤمنون مهما كانت قوة الأدلة والبراهين المادية، لأن المسألة ليست مسألة آيات بينات قاهرة، ولكن المسألة تكمن في طبيعة البشرية، وفي البناء النفسي الذي طبعت عليه، ويؤكد هذا ما جاء في السورة نفسها تعبيرا عن الحال الملازمة للإنسانية حتى في مقام الحساب والعقاب، إذ قال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ٩٠-١٠٣] .

إنها خاتمة البشرية كلها تقص علينا بإيجاز شديد لتنكشف النتيجة التي سيئول إليها أمر الأكثرية، فإذا هي تندم على السلوك الذي سلكته مع أنبياء الله ورسله، وتتمنى لو تتاح لها فرصة أخرى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكنها ندامة في غير موضعها، لقد جاءت بعد فوات الأوان، بعد أن كُبكب الناس الغاوون وجنودُ إبليس أجمعون في الجحيم المقيم، حيث لا مرد، لأنهم حتى لو رجعوا إلى الدنيا لما نفعهم ذلك، ما دامت النفس التي يتعاملون بها مع الواقع لم تتغير، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وهو القائل: ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ..... أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٧]

إن الناس بعد الموت سيتمنون العودة إلى دار الدنيا ليعملوا الصالحات، ولكن هذا التمني من جهة لا معنى له، لأنه خارج عن سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير، ومن جهة هم أنفسهم ليسوا متيقنين من صلاحهم إن عادوا، وذلك ما يفهم من قولهم «لعلي» ثم إن الله يبين أنهم كانوا قد رأوا الآيات وكذبوا بها، ولذلك يوبخهم قائلا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيردون معتذرين ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ وهذا إقرار منهم بأنهم اتبعوا لذاتهم وأهواءهم، فسموا اللذات والأهواء شقوة لأنهما يؤديان إليها، وقيل حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق هو الشقوة التي أدت بهم إلى الضلال عن الهدى[1].

إن قول هؤلاء الناس يوم القيامة ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٥٣

هو الذي يفسر هذه الطبيعة البشرية التي تجر الأكثرية إلى الهلاك، إن الذي غلب على النفس هو أسباب الشقاء، هو الملذات والأهواء التي تغطي القلب وتحجبه عن رؤية الحق، وهي نفسها التي يفسرها قول الله تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] ، وقد فصلنا القول في هذا الأمر في كتاب «التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا».

وإنما نؤكد هنا أن قولهم ﴿ **رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ** ﴾ كقولهم في سورة الأنعام ﴿ **يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ٢٧– ٢٨].

فالآيات هنا تبين حقيقة واحدة وهي أن ثبات هؤلاء على الكفر سنة لا تتغير، لأن المقدمات تسوق حتما إلى النتائج، وعليه فإنهم لو رُدوا إلى الدنيا بتلك النفوس نفسها لكانت مواقفهم من أمر البعث مطابقة لمواقفهم السابقة، لقد غلبت عليهم شقوتهم فلم يملكوا الفرار منها، فصارت كالقدر المحتوم، وما هي بالقدر وإنما هي السنن تقوم على قوانين مضبوطة لا تعرف التبديل ولا التحويل، فالشقوة تعني خبث نفوسهم، وتمكن الشهوات من قلوبهم، فلم يستطيعوا أن يقاوموا دواعي الهوى والشهوة حتى أصبحوا لا همَّ لهم إلا بطونهم وفروجهم وأمر دُنياهم ... وتلك الشهوة غلبت دعوة الدعاة من الأنبياء والرسل، وغلبت الكتب وما نزل فيها، تقرأ عليه الآيات فيكذب، ويوعظ ويحذر، ويبشر وينذر فلا يستمع إلى شيء من هذا أبدا فهم يعترفون بأن غلبة الشقوة علينا ليست بسبب كوننا لم نسمع القرآن أو لم نقرأه أو لأننا لم نؤمر ولم ننه، وإنما شقوتنا هي التي غلبتنا وكنا عن الصراط ضالين [1].

إن اعتراف البشرية يوم القيامة بأن غلبة الشقوة على النفوس هي التي

---

(١) إبراهيم بيوض : في رحاب القرآن : ج٥ ص ٢٧٢–٢٧٣

قادتهم إلى الضلال وما ترتب عليه من ضياع دنيوي وأخروي يؤيده نص آخر جاء في سورة يس هو قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [ يس : ٧ ]، قال ابن عاشور : « هذا تفصيل لحال القوم الذين أرسل محمد ﷺ لينذرهم، فهم قسمان : قسم لم تنفع فيهم النذارة وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة، وبيَّن أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب، أي علم الله أنهم لا يؤمنون بما جبل عليه عقولهم من النفور عن الخبر فحقق في علمه وكتب أنهم لا يؤمنون، فالفاء لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذي حق على أكثرهم ، و« حق » بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقصا »(١) .

والشيخ ابن عاشور يبدو كما لو أنه قد جعل هذه الحال التي حقت على الأكثرية راجعة إلى الجبلة، فهم في رأيه لا يؤمنون بسبب ما جبل الله عليه عقولهم من النفور عن الخير، والأمر ليس كذلك، إنما مرجعه إلى السنن التي أودعها الله في خلقه بحيث تصير النفس إلى الحال التي نماها عليها صاحبها، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [ الشمس : ٧-١٠ ] .

فالناس جبلوا على الفطرة البيضاء فمنهم من زكى نفسه فدعم تقواها التي جبلت عليه، ومنهم من دساها ولوثها فدعم الفجور الذي لها الاستعداد له، ويؤيد ذلك ما جاء في سورة يس بعد ذلك بمثابة تعليل للحق الذي ثبت على الأكثرية، إذ قال تعالى ـ شارحا سبب تلك النتيجة : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ** ﴾ [ يس ٨-١١ ]

---

( ١ ) التحرير والتنوير : ٢٢ / ٣٤٨-٣٤٩

وقد فسر الشيخ ابن عاشور الجعل بأنه «هنا حقيقة، وهو ما خلق في نفوسهم من خلق التكبر والمكابرة»[1]، وهذا تفسير يبين أن سبب أن حق القول على الأكثرية بأن لا تؤمن إنما مرده إلى التكبر والمكابرة وهو مرض نفسي اكتسبته النفس من جراء ما تعودت عليه فنشأت تنشئة تمنعها من الإذعان للحق والرجوع إليه.

وانتفاء الإيمان على قلوب الأكثرية شامل للإيمان بالله والإيمان بالساعة، فكما أنهم لا يؤمنون بالله على الرغم من الأدلة القوية التي تحسها كل الأبصار والعقول، فإنهم لا يؤمنون بالساعة، يقول المولى جل جلاله: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [غافر: ٥٩] والساعة هنا بمعنى القيامة، والمعنى أن القيامة آتية لا محالة، لا شك فيها ولا مرية، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولذلك ينكرون البعث والجزاء، وذهب الرازي إلى أن المقصود بأكثر الناس هنا الذين ينكرون البعث والقيامة[2]، وكأنه يجعل الأكثرية مصروفة إلى نسبة ما غير نسبة هذه الأكثرية إلى البشرية كلها، وهذا ليس صحيحا، لأن الأسلوب القرآني لا يعرف المبالغة، فهو حين يقول «أكثر الناس» فإن ذلك ينبغي أن يصرف إلى نسبة المكذبين لعدد سكان الأرض من لدن آدم إلى يوم القيامة، ولو فكرنا قليلا على مستوى البشرية اليوم لوجدنا نسبة المكذبين مرتفعة جدا.

نعم هناك إحصائيات غربية ترى أنه «حتى في أروبا الغربية لا يمكننا أن نسلم بإلحاد على مستوى الشعب، إذ بحسب استفتاء في الرأي تم عام ١٩٨٧ فإن في الولايات المتحدة هناك ٩٤ بالمائة من الأمريكيين يؤمنون بالله، وفي ألمانيا، هناك ٧٠ بالمائة من الألمان يؤمنون بالله مقابل ١٣ بالمائة يرفضونه وفي بريطانيا العظمى بحسب الساندي تايمز (sindqy times)، والساندي تلغراف sundqy Telegrqph هناك ثلاثة أرباع الأشخاص الذين خضعوا للاستفتاء عام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٥٠.

(٢) انظر تفسيره لآيات سورة يس ٨-١١.

١٩٩٠ يومنون بوجود قوة فائقة الطبيعة، لا شك أن كل ديانة غربية هي في مواجهة جذرية مع مسألة العلمنة إلا أن المجتمع الغربي العلماني لا يعني بالضرورة غياب الدين »[١].

هذا هو الكلام النظري الذي يمكن أن يبرر الاعتقاد بأن نسبة المؤمنين في الغرب أو حتى في العالم كبيرة، ولكن هذا الكلام سيظل كلاما نظريا، لأن واقع المجتمعات يثبت أن الاكثرية لا تؤمن، ألا ترى أن سكان العالم اليوم يزيد على ستة ملايير، ليس فيها سوى المليار الواحد من المسلمين بالانتماء أما المسلمون المطبقون فلعلهم لا يزيدون على ربع المليار، ولعل الربع كثير.

ثم إن النسبة التي يتحدث عنها هانس كينغ في النص السابق تتعلق أساسا بالإيمان بوجود قوة تتحكم في العالم غيبية، أما المعرفة الحقيقية بالله وتوحيده والإيمان به والعمل بتشريعه، فهذا يقتضي الإيمان بالبعث وما يترتب عليه من جزاء، والكتب وما تأتي به من تشريعات، وهذا الذي يكاد يختفي في الفلسفة الغربية كلها، إذ « هنالك بعض الفلاسفة ممن يصرون من جديد في حوارهم أحيانا مع فلاسفة على وجود عصر ما بعد الميتافيزيقا، ويعتمدون فكرا يتخطى الميتافيزيقا ( هابرماس ) كي يبلغوا من خلال ذلك أخلاقا مبنية على العقل فحسب، لقد ترعرعنا في عصر ومحيط فكريين جردا الدين من أهليته، فاعتبر الدين ( كانعكاس ) أو ( كتغريب ) ( فيورباخ ) أو ( كقمع ) اجتماعي أو ( كأفيون للشعب ) - ماركس- أو كعامل ( انكفاء ) أو كعدم نضج نفسي ( فرويد )، وبالتالي تخطاه الزمن »[٢].

كل هذه الفلسفات لا تؤمن بالغيب مطلقا، ومن بين عناصره الأساسية الإيمان بالساعة، ولو أنهم آمنوا لبرز ذلك في مؤلفاتهم على مستوى المقتضيات

---

( ١ ) هانس كينغ : مشروع أخلاقي عالمي ص ٩٠ تعريب جوزيف معلوف وأرسلا عساف المكتبة البوليسية لبنان ط١ ١٩٩٨ .

( ٢ ) نفسه : ٨٨ .

المترتبة عن الإيمان بالبعث، ولكن ذلك لم يحدث، بل هناك إصرار كبير على العلمانية كمذهب جديد للحياة غطى فلسفة القرن التاسع عشر والعشرين.

وهكذا يتجلى لنا أن مفهوم الأكثرية التي تؤمن بالساعة يعبر عن نسبة حقيقية، وليست نسبة مجازية، ويعبر عن نسبة تتعلق بالحياة البشرية فوق كوكب الأرض من لدن أبيهم آدم إلى قيام الساعة.

ويؤيد ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأنبياء : ١-٢]

فالناس - كما يقول سيد قطب رحمه الله - « يواجهون اقتراب الحساب بالغفلة وأمثال هؤلاء موجود في كل زمان، فحينما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن »(١).

ويترتب على انتفاء الإيمان بالله، والإيمان بالساعة استهتار بالأخلاق والقوانين والتشريعات التي ارتضاها الله نظاما لعباده، يصلح حالهم تبعا للاهتمام بها، ويفسد تبعا لإهمالها، وعلى هذا جاء قوله تعالى ليثبت قاعدة الأكثرية في مجال مراعاة العهود والمواثيق : ﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة : ١٠٠] .

إن السياق الذي جاءت فيه هذه الآية يحيل على بني إسرائيل، ومعناه أن الأكثرية التي تنبذ العهود ولا تراعيها هنا، هي اليهود، ومن الواضح أن العهود تنبذ من فريق فقط ﴿ **نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** ﴾، ولكن سكوت الباقي على الباطل يدخلهم في الدائرة نفسها، ولذلك جاء الأسلوب معتمدا على الاضراب بالحرف « بل » ليبين أن ذلك النبذ مشترك بين الأكثرية لأنها لا تؤمن

---

(١) في ظلال القرآن : ١٧/٢٣٦٧ .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ « أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق »[1]، ولصاحب تفسير « التيسير في أحاديث التفسير » نظرة ثاقبة في بيان العلاقة بين نبذ فريق منهم وكون أكثرهم لا يؤمنون، فهو يرى أن اليهود يتميزون في المعاملات الجماعية « بخصلة الالتواء والتذبذب، والروح الانتهازية الصرفة، و هكذا إذا أعطت جماعتهم للمسلمين عهدا لم يلتزمه كلها وفي مجموعها التزاما تامًا، بل إن فريقًا منها ينبذه في الحين وينتمي في السر إلى الجانب المعارض، بينما يحافظ الفريق الآخر على العهد ظاهرا، فيبقى مع الجانب الذي عاهده، وذلك ليضمنوا مصالحهم مع كلا الجانبين، الجانب المتغلب اليوم، والجانب الذي يمكن أن يتغلب غداً، وهذا ما تشير إلى فحواه الآية الكريمة »[2].

● **دلالات الصيغ المتكررة في قضية نفي الإيمان :**

يبدو لي أن الصيغ المعبرة عن انتفاء الايمان الذي عالجناه في هذا المبحث والذي عبرت عنه صيغة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ هود : ١٧ ، الرعد : ١ ، غافر :٥٩ ] وصيغة ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يوسف : ١٠٣ ] وصيغة ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [ يوسف : ١٠٦ ] وصيغة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٠ ]، وصيغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : ٨ ] إنما هي صيغ تختلف باختلاف الأحوال التي تعرضها، وتتفق باتفاق الأحوال التي تقدمها، ففي سورة الشعراء مثلا تتكرر صيغة واحدة ثمان مرات للدلالة على حال واحدة هي أن تلك الأمم التي استعرضت السورة تاريخها قد مضت واندثرت، فجاء التعبير للدلالة على مضي الفعل وتحوله إلى نموذج تاريخي للاعتبار، بينما جاءت صيغة الاستدراك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾التي تكررت في القرآن كله ثلاث مرات للدلالة على أن انتفاء الإيمان على الأكثرية مرده إلى البنية النفسية التي صارت إليها الأغلبية لا إلى غموض

---

( ١ ) الصابوني : صفوة التفاسير ١ / ٨٣ .

( ٢ ) محمد مكي الناصري : التيسير في أحاديث التفسير ج١ ١ / ص ٦٤-٦٥ .

قضية الحق أو إلى ضعف الأدلة والبراهين عليها، وعلى هذا نجد الآيات الثلاث تصوغ القضية بشكل يكاد يكون واحداً لولا اختلاف الموضوع اختلافا فرعيا كمايلي :

١ ـ ﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

٢ ـ ﴿ **وَالَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

٣ ـ ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

فهذه الصيغ الثلاث تقوم على الاستدراك الذي ينفي الإيمان على أكثر الناس، لبيان أن المسألة لا تتعلق بضعف البرهان أو الدليل أو الحجة، ولكن تتعلق بالبنية النفسية التي ستحدد طبيعتها صيغة سورة يس كما سيأتي .

وتلتقي صيغة الاستدراك هذه في هدفها بصيغة الإضراب التي لم تأت إلا مرة واحدة هي : ﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾، وهي هنا مرتبطة بالموضوع نفسه، لأن السياق الذي وردت فيه يبين أن أهل الكتاب لا يؤمنون بالتوراة، إذ لو آمنوا بها لصدقوا محمداً ﷺ؛ لأن التوراة تحمل نبأ نبوته وتبشر بمجيئه، فلما أغمضوا عيونهم على ذلك تبين أنهم لا يؤمنون، على الرغم من إقامة الدليل النقلي بين أيديهم، ولذلك عطف على تلك الآية بقوله: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [ البقرة : ١٠١ ].

وتلتقي صيغة ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ مع صيغة ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ في الدلالة على السنة التي بنيت عليها النفس البشرية بحيث صار أكثر أهلها إلى انتفاء الإيمان، على أن الأولى تخاطب الرسول ﷺ لتطمئنه على أن النتائج التي قد تتحقق على مستوى الدعوة،لا تعود للجهد الذي يبذله الرسول ﷺ أو الداعية، وإنما تعود للسنن التي آل إليها أمر الإنسانية من عناد وجحود وإنكار للحق وكنود يشهد به الإنسان نفسه ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴾[ العاديات :٦-٧ ] ﴿ **رَبَّنَا غَلَبَتْ**

﴿عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] ، والثانية تسوق السنة نفسها لبيان أن من حق القول عليه فلا مناص له من الخضوع له، لأن من حق عليه فعل السنة كان كمن جعلت في عنقه أغلال تجبره على المضي نحو القدر، وسدت أمامه وخلفه المخارج بحيث لا ينفع معه دعوة داع ولا إنذار منذر، ولذلك عقبت عليه الآية بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٨-١٠] .

وتنفرد صيغة : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بفكرة متميزة للدلالة على أن «إيمانهم بالله كالعدم لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية»(١) .

والفرق بين قضية نفي الإيمان التي عبرت عنها هذه الصيغ مجتمعة، وبين قضية الكفر بمستوييه : كفر العقيدة وكفر النعمة، اللذين سبق الحديث عنهما، يكمن في أن نفي الإيمان أمكن في النفس من كفر العقيدة، وكفر العقيدة أمكن من كفر النعمة، لأن نفي الإيمان هنا جاء ليدل على انغلاق مسالك الهدى أمام حركة الإيمان، فهم من أجل ذلك لا ينتظر منهم التغير إلا إذا تغيرت بنيتهم النفسية تماما كما نفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧] وتغيير بنيتهم النفسية يتطلب ابتلاءات قوية جدا، وبعض النفوس قد لا ينفعها حتى وقوفها على حقيقة البعث، كما بين ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وينبغي ألا يختلط الأمر علينا هنا بسبب كون آية البقرة تتحدث عن الذين

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ٦٣

كفروا، لأن الذين لا يؤمنون هم أنفسهم الذين كفروا، ولكن مع زيادة أمر ذي بال وهو وقوعهم في المجال المغناطيسي الذي يعجزون عن الخروج منه إلى مجال الإيمان.

أما الذين يقعون في مجال صيغة الكفران، ولا سيما كفران النعمة فإنهم يكونون أقرب إلى الهداية والتوبة، متى تحققت الأسباب المؤدية إلى ذلك، كذهاب أسباب العناد، ووقوع الابتلاءات المنبهة لخطر الكفر بنوعيه، وذهاب علة الهوى، وتغير المجال الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد نحو الأحسن، فنحن نجد الكافر في سورة الإسراء يشترط للإيمان الحجة الأقوى كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا * وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴾ [الإسراء: ٨٩ – ٩٠].

فأكثر الكفار هنا يبحثون ـ نتيجة العناد والمكابرة ـ عن الحجة المعجزة طبعا، وهذا يتضمن إصرارهم على الكفر، ولكن يتضمن أيضا إمكانية الاهتداء متى زال سبب الإصرار، وقد بينا ذلك في كتاب «التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا» حين عالجنا موضوع الران.

وقد يتضح الفرق أيضا لو نظرنا لقول الله تعالى معبرا عن قصة إبليس عليه اللعنة مع الإنسان: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧]. فالأكثرية هنا ليست شاكرة كما توعد الشيطان فعلا، ولكن هذه المشكلة بسيطة إذ يكفي أن يتذكر الإنسان فيستعيذ بالله فينجو من قبضة الشيطان: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [فصلت: ٣٦] [1]، ومعناه أن الشيطان لا يملك قوة القهر على الكفر: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ**

---

(١) انظر المعنى نفسه في الأعراف ٢٠٠

وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٥]، ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩] ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، والشيطان نفسه يعترف غدا يوم القيامة بهذه الحقيقة قائلا: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [ابراهيم: ٢٢].

**مجمل القول**: وخلاصة الحديث في مجال انتفاء الإيمان على الأكثرية، أن النصوص القرآنية التي تعرضت للأغلبية في هذا المجال نفت عن الأكثرية الإيمان بالله وباليوم الآخر، على الرغم مما قدم لهم من الأدلة العقلية التي يثبتها المنهج البرهاني، والأدلة الحسية التي يعتمدها المنهج الحسي التجريبي، والأدلة النقلية التي يعتمدها المنهج النقلي، وقد كان ذلك بسبب خضوع أكثرية البشرية للسنن التي لا تحابي أحدا، مما جعل القول يحق على أكثرهم، فهم لا يؤمنون كما تبين آية سورة يس، وقد بين تتبعنا للأمم وتاريخها مع مشكلة انتفاء الإيمان من خلال سورة الشعراء التي تكررت فيها القضية ثمان مرات، فانتهى بنا البحث إلى أن أكثرية الأمم التي عرضتها هذه السورة وهي قوم نوح ثم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وبني إسرائيل، كلها نماذج تجسد فكرة انتفاء الإيمان على الأكثرية المطلقة، بحيث لا نجد من أتباع بعض هذه الأمم للأنبياء والرسل إلا قليلا جداً، فلم يركب مع نوح في الفلك إلا قليل، ولم ينج مع لوط سوى ذريته وهكذا.

* * *